الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

في قصر ألكينوس

ملخص الفصول السابقة

« لم يعد أوديسيوس من طروادة فيمن عاد من أبطال الاغريق فطمع في زوجته الجميلة — بنلوب — أمراء البلاد وحاصروا بيتها ليرغموها على اختيار أحدهم زوجاً لها . وقد ساءت هذه الحال إلهة الحكمة منرفا وصديقة البطل فرضت ولده تليماك أن يبحر إلى أسبرطة وبيلوس ليسأل الملوك عن أبيه وقد أبحر تليماك ، وعلم أن أباه ما يزال حياً في جزيرة كاليبسو عروس الماء — وغيظ عشاق بنلوب لما علموا بإبحار تليماك فتربصوا به ليغتالوه في عودته . أما أوديسيوس فقد صنع له رمثاً وأبحر عليه من عند كاليبسو ولم يزل يصارع البحر حتى اقترب من سواحل شيريا مملكة أمراء البحر وهنا ثارت العواصف وكاد يغرق ... ونجا بعد جهد ونام في دغيلة في طرف غابة على سفح الجبل . وأقبلت نوزيكا إبنة ملك شيريا في ركب من وصيفاتها لتغسل مطارف عرسها فدفعت أوديسيوس الذي رجاها أن تمنحه ثياراً وأن تدله على مدينتها — وقد أعطته ما سأل ورسمت له الخطة التي يلقى بها أباها الملك ألكينوس »

وفرغ أوديسيوس من صلاته ، ووصلت عربة

هوميروس

الأميرة إلى القصر فلقيها إخوتها الأمراء الخمسة النجلوب ، فخا الدواب وحملوا المطارف والثياب ، وصعدت هي إلى مخدعها حيث كانت خادمتها العجوز الشمطاء (يوريمديوسا) تعنى بنار المدفأة

ولم تكد يورى سيدتها حتى حيت وبيت ، وانطلقت تعد لها وجبة المساء

أما أوديسيوس فقد هب من مجلسه ، ويمم شطر المدينة ، وقد نشرت حوله منرفا — صفيته الوفية — ظلالاً وغماماً يحجبه عن أعين الناس حتى لا يضايقه أحدهم بسؤاله من هو وفيم أقبل ومن أي الأقطار جاء ... بيد أنها لاحت له قبل أن يلج باب المدينة في هيئة فتاة قروية كاعب تحمل فوق رأسها جرتها ... وتعمدت أن تعترض طريقه ، فانتهزها فرصة وراح يسائلها هكذا : « يا بنيتي ! أتسمحين فتدليني على بيت رب هذه البلدة ، ألكينوس الكريم ؟ لقد نال مني الوني وطول السفر ، وحلت عليكم يا أهل فيشيا الأجاويد ضيفاً

غير معروف ، من بلد سحيق ، فهل تفعلين ؟ »

وقالت مينرفا — ذات العينين الزبرجديتين — وهى تجيبه :

« حباً أيها الغريب الوقور وكرامة ! سأدلك على بيت ألكينوس بنفسى ، فهو غير بعيد من بيت أبى ... ولكن لى إليك وصية ... إصمت مادمت سائرا ، ولا تحدج أحداً بنظرة ، ولا تكلم من أهل هذا البلد إنسياً ، فقد جبلوا على ازدراء الغرباء وقلة إيلافهم ، وتلقيهم فى فتور وبرود طبع ، وقد أحبهم نپتيون رب البحار فأذل لهم أعناق الموج وأساس لسفنهم أعراف الماء ، فهى تخطر فيه كالطير حين تخزف ، أو كالفكرة حين تخطر فى الخلد »

وتهادت ربة الحكمة بين يديه ، ودلف هو وراءها ؛ ولم تره جموع البحارة الحاشدة التى كان يسير بينها ، لأن مينرفا ضربت على أعينهم غشاوة عجيبة حجبته عنهم ؛ وكان ينظر بعين الدهش إلى ميناثهم وسفائنهم ورحبة السوق التى يأوى إليها أبطالهم ، وإلى تلك القلاع المحدقة بالمدينة فى أبهة وجلال ؛ ثم بلغا بيت الملك ، فقالت مينرفا :

« هاك يا أبتاه القصر الذى سألت أن أدلك عليه . وستلقى فيه رؤساءنا وأمراءنا أصحاب السمو يولون ويقصفون ، فهلم فالقهم بقلب رابط وجأش ثابت ، فهم أعجب الناس بشجاع جرىء ، وأكرمهم للاجىء غريب . وستكون الملكة أريتا — سليلة الشرفاء الامجاد آباء ألكينوس الكبير ، وحفيدة المردة الجبابرة من ذرارى نپتيون[1] — أول من تلقى . إنها سيدة قومها ، وهى محبوبة مبجلة إلى درجة التقديس من زوجها وأبنائها ومن جميع الفياشيين ملوك البحار ، الذين طالما تكبكبوا حول موكبها فى شوارع المدينة هاتفين داعين . . . إنها تجالس وقوراً كاحدى ربات الأولمب فتغمر بالمحبة أبناءها ، وتقضى فيما يشجر بينهم ... لك الله ياسيدى إن قدر لك فاستطعت لقاءها ... إنها إذن تمنحك برها وتسبغ عليك من بركاتها فتعود إلى بلادك راضياً ، وتلقى آلك وخلانك عزيزاً مكرماً »

ثم غابت مينرفا عن الانظار ، وغادرت أرض شيريا الحبيبة إلى مراثون — ومن ثمة رفت رفة فكانت فى أثينا حيث أوت إلى قدسها الكريم إركتيوس

ودخل أوديسيوس قصر الملك هياباً متخاذلاً ، غارقاً فى بحر لجى من الوهم والفكر ، لأنه ما كاد يطأ بقدمه وصيد الباب الكبير حتى بهره لألاء شديد خاطف ينبعث من الداخل ، يزيد فى شدته ولمعانه تلك الجدران المصفحة بالنحاس يزينها إطار من اللازورد الأزرق ، وتلك الأبواب الهائلة من الذهب الخالص ، والعماد السامقة من الفضة المجلوة ، تكللها تيجان من النضار الثمين . وعلى اليمين وعلى الشمال ربضت كلاب من ذهب ، صنعة ڤلكان ، صناع السماء الخالد ، وخالد أبد الدهر كل ما صنعت يدا ڤلكان . ثم تلى بعد ذلك ردهة فسيحة مترامية صفت إلى جدرانها كراسى كأنها عروش ، وبُثت فوقها نمارق ذات أفواف وشفوف ، صنعة وصيفات القصر ؛ وهنا ... يولم الملك لأمراء شيريا ... فيقف الولدان فى جلاليب من ذهب ، وفى يد كلٍّ شعلة تسكب الأضواء من فوق المذبح على جموع الطاعمين

(١) آثرنا ألا نثبت هنا ما ذكر هومر من نسب الملكة مخافة الاملال

فى كل ليلة ... يا للقصر كأنه جنة الخلد ؟ . . . إن خمسين من غيد شيريا الرعابيب يخدمون الملك ثمة ... يطحنّ القمح وينخلن الدقيق ، ويندفن الصوف ويعملن على النول . . . مائسات كأفنان الدوح يداعبهن النسيم الحلو . . حاذقات فى الغزل والنسج كأحذق ما يكون بحارة شيريا فى عنفوان العاصفة . . قد تفنن صناعتهن عن مينرفا فافتتنت وأبدعن إبداعاً . ثم تكون البوابة الكبرى ، حيث فردوس القصر اليانع ، وجنته دانية القطوف ، ذات الأسوار المنيعة المحيطة بهذه الأربعة أفدنة . . للآلهة هذا الدوح قد بسق فى جنباتها ؛ وللآلهة أشجار الرمان المثقلة بأثمارها مغترّة عن شفاه الأقاح . . وحمرة الخجل قد خضبت خدود التفاح والكمثرى ، وسالت قطرات من الشهد فى ثمرات التين ، وتأججت أنواراً زاهية فى أفنان الزيتون . . فاكهة شهية جَنِيّة لا مقطوعة ولا ممنوعة شتاء وصيفاً ، يانعة أبدا ، تداعبها أنفاس (زفير رب الصبا فتشيع فيها النضج والنماء ، كلما قطفت يد من جناها ثمرة نمت مكانها فى الحال ثمرات ، فما تقل آخر الدهر قطوفها وما تنقص

وخلال هذه الجنة المثمرة تمتد الكروم ذات الأعناب والرطب والعناقيد من نور ، بعضها يعصر فتقطر الخمر منه ، وبعضها يجف على سوقه فيكون زبيباً جنياً . . ثم توشى أطراف الحديقة أحواض من الزهر المشذب المنسق ، وتتفجر فى وسطها عينان نضاختان ، يترقرق الماء من إحداها كاللجين فى مسايل هذا الروض ، وتتدفق مياه الأخرى فى نهر صغير ينساب الى المدينة من تحت عتبة القصر فيرتوى الأهلون منه

مُلك كبير وآلاء وافرة أسبغتها الآلهة على الكينوس الملك !

* * *

وقف أوديسيوس مسبوه اللب ، مشدوه الفكر ، يردد طرفه فى هذا المنظر العجب ، ثم أفاق فخطر إلى الداخل ، حيث اجتمع زعماء المدينة وشيوخها يصبون الخمر باسم هرمز رسول السماء تقدمة وقربانا ، وصلاة لختام أرباب الأواب قبل أن يأووا إلى مضاجعهم . ولم يتلبث عندهم ، بل تقدم فى خطى حثيثة برغم إعيائه ، وكانت مينرفا تحجبه فى ظلال كثيفة من أعين الملأ ، حتى وصل إلى حيث يجلس الملك والملكة ، فكُشف عنه غطاؤه ، وجثا عند قدمى الملكة يبث شكاته بين دهش الملكين الكريمين وشدة تحيرهما :

« أريتا يا ابنة ركسنور صفى الآلهة ! أتوسل إليك وإلى المليك العظيم ، وأضيافكم النبلاء ، من الله عليهم ، وضاعف لهم آلاءه ، وأنعم على ذراريهم وألف بين قلوبهم وقلوب رعاياهم ، أتوسل إليك يا سليلة المجد ضارعاً أن تعطفى علىّ ، وأن تكرمى مثواى ، وأن تعينينى على الرحلة من فورى إلى بلادى التى أتحرق إليها شوقاً ، والتى فصلتنى عنها أهوال وأهوال ! »

وساد سكون عميق وصمت ، وظل البطل المسكين جاثياً عند حافة الموقد المتأجج ، حتى تفجرت شآبيب الرحمة والحنان فى قلب إخنيوس ، ابن الملك البكر ، فراحت الكلمة الطيبة تتدفق من فمه الجميل العذب فى فصاحة وتبيان ، وحكمة تقليدية ، وخير ، حيث قال :

« حاشا لمجدك أيها الملك أن تدع هذا الغريب

جاثياً هكذا فى غبار الموقد وفى وهج النار ، وأن تتركك أضيافك ينتظرون أمرك . . . وما تكلم منهم أحدا ! ألا فخذ بيد الغريب وأقعده مقعد الندى ، ومر الندمان يسقه من كأس جوف كبير الآلهة[1] ، وحبيب الغرباء وذوى الحاجات ، والنادلَ يهيىء له عشاء مما تبقى من وليمة الليلة »

وما كاد الأمير يفرغ من قالته ، حتى أنهض الملك أوديسيوس وأجلسه على كرسى فخم جانب ولده الحبيب الحكيم لاوداماس . . . ثم أقبلت إحدى وصيفات القصر فصبت الماء على يديه من أبريق فضى ، ثم أحضرت مائدة حافلة بأشهى الأكل وأطيب اللذائذ والأشربات ، فأكل أوديسيوس وارتوى ؛ وأمر الملك كبير السقاة يونتونوس ، فمزج الراح وقدمها إلى الجميع حيث صبوها تقدمةً لجوف رب الصواعق وكبير الآلهة ، وحبيب الغرباء ، وحامى ذوى الحاجات ، ثم شربوا بعد ذلك حتى روَوْا

وقال الملك : « أيها الرؤساء والشيوخ الفياشيون كلمةً عفو الخاطر ، فاسمعوا وعوا . . . لقد طعمتم جميعاً وستتفرقون إلى مضاجعكم ، ثم تجتمع عند مطلع الفجر نحن ، ومن لم يحضر من نواب الأمة الأجلاء ، فننظر فى شأن هذا اللاجئ الغريب ، بعد أن نضحى للآلهة . . . إنه يطلب أن نعود فى حمايتنا إلى وطنه كيما يصل سالماً غانماً من غير أن يمسه أذى ، إلا أن تكون ربات الأقدار قد قضت عليه أمراً ، وإلا أن يكون من أرباب السماء الخالدين . . . لقد وصلت بيننا وبين الآلهة وشائج القربى ، وطالما غشيت مجالسنا وشاركت فى ولائمنا ، وهى تبقى على محبتنا ، فلا تمس بأذى رجلاً منا يضرب فى الأرض ، وليس ما بيننا وبينها بأقل مما بينها وبين السيكلوبس أو المردة الجبابرة ، وفى ذلك فخارنا وهو آية مجدنا »

ونهض أوديسيوس الحكيم فقال : « غفرا غفرا أيها الملك : ما أنا فى الآلهة ! ! أين لى خلقها السوى ، وكيانها السماوى ؟ بل أنا شقى من أبناء هذه الغبراء ، أثقلت كاهله حمولة هائلة من الكوارث والآلام ، حتى لا يعرف الناس من شقى شقاءه ، ولا من تحمل مصائبه وأوزاءه . . . بلايا صبتها على رأسه الآلهة فصبر وأناب . . . أوه ! أبداً لا أنتهى إذا سردت لكم طرفا يسيراً منها ! ولكن لا داعى الآن . . أرجوكم . . أتوسل إليكم . . دعونى أتبالغ بهذه اللقمات فى هذه اللمحة الحالة من الراحة التى لم أنعم بمثلها منذ بعيد . لشد ما يصرخ الجوع فى أذنى الجوعان ، ولشد ما يعذبه الطوى ! إنه يلح عليه بكل صنوف الألم ، حتى ينسيه آلامه وأشجانه . إن له لشهيه عالية الصخب تطلب العون فى جؤار وجنون ، حتى ليضيع فى تجيجها هتاف جميع الآلام إلى أن تكتفى . عفواً أيها السادة : إنى أمتاً أضرع إليكم أن تيسروا لى عوداً أحمد ، وأوبة سالمة ، بعد طول العناء ، والشقاء الذى ليس بعده شقاء ؛ إنه لا أحب إلى من أن أودع الحياة بعد نظرة واحدة أتزودها من أهلى ووطنى . »

وتأثر القوم من أجله فأثنوا عليه ، واتفقت آراؤهم على معاونته حتى يعود إلى بلاده ويلاقى ذويه ثم نهضوا فصبوا خمر الصلاة باسم الآلهة ، وشربوا نخب رب الدار ، ثم تفرقوا إلى منازلهم ، إلا أوديسيوس ، فقد ظل جالساً ساهما واجماً ، كما ظل

(١) فى الأصل (رب الصواعق)

الملكان إلى جانبه ساهمين واجمين ، والندل فيما بين ذلك يحملون أطباق المائدة وأكوابها ، حتى إذا فرغوا أخذت الملكة تتحدث إلى أوديسيوس ، وقد لفت نظرها هذا الثوب الفضفاض الذى كان يلتفع به :

« والآن جاءت نوبتى فى التحدث إليك أيهذا الغريب الكريم ، من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأنى لك هذا الصدار وذاك الدثار ؟ ألست قد قلت إنك غريب نازح أفلتتك المنايا فى لجج البحر ؟ »

وقال أوديسيوس يجيب أريتا :

« أيتها الملكة : قد لا أفرغ من الحديث إذا حاولت أن أسرد قصتى بحذافيرها ! بل ليس أشق على من ذلك ، فقد كرثتنى الآلهة بكل أنواع الهموم وصنوف الآلام ، بيد أننى ألم بمأساتى المحزنة فى كلمات فأقول : « فى أوجيجيا — إحدى الجزر القاصية التى لم تطأها قبلى قدم بشر ولم يخطر بها إلـه — تقيم عروس الماء المفتان — كاليبسو — البارعة الرائعة الصناع ، ابنة أطلس الجبار التى قدر على أن أكون أول لاجىء إلى جزيرتها بعد أن سلط جوف صواعقه على سفينتى فشطرها وأغرق كل رجالى ، وظللت أنا متشبثاً بالسارية ليالى وأياماً ، حتى دفعتنى المقادير فى الليلة العاشرة إلى ساحل الجزيرة حيث آوتنى كاليبسو الجميلة الريانة ، وأنقذتنى من موتة أكيدة وأطعمتنى وأكرمت مثواى — ثم عرضت أن تهبنى الحياة الخالدة والشباب الأبدى ، لولا أننى تأبيت . . . ثم ألفت عندها سبع سنوات لم يرقأ طوالها دمعى الذى نضحت به أثوابى وما خلعت على من دثار . . . وفى الثامنة أرسل إليها جوف كبير الآلهة من يأمرها باطلاق سراحى ، فأبحرت على رمث زودته بالأطايب والأذخار ، والأشربات والآكال ؛ ثم أرسلت بين يدىّ ريحاً رُخاء ما انفكت تجرى بى فى عباب من بعده عباب طيلة سبعة عشر يوماً . . . وفى الثامن عشر لاحت لقم جبالكم الشم فخفق قلبى فرحاً . . . بيد أنه كان أملا خُلَّباً لم يطل أمده . . . فقد أبى نبتيون الجبار إلا أن يقف بسبيلى ، وإلا أن يرسل ريحاً معاكسة تثير الموج وتهيج اللج ، وتمزق ما التأم منى ومن فلكى الصغير — الذى كان كل أملى . . ولم يعد بد من أن أكافح الماء ، وأذرع اليم بالسباحة ، حتى تضافرت الريح والموج ، فقذفانى إلى ساحلكم ذى النؤى . . ولم أحتمل صدمة الصخور ، فنضحنى السيل الرابى إلى الأعماق كرة ثانية . . . وشرعت أكافح مرة أخرى ، حتى نثرتنى موجة مزبدة فى نهر وديع منطامن . . . فسبحت إلى إحدى عدوتيه ، واستلقيت على الشاطىء خفق الأحشاء منهوك القوى . . . وأقبل الليل فتهالكت على نفسى إلى دغيلة مهدتها بمساليج وشىء من القش وفروع الشجر ، ونمت ليلا طويلا وضحوة متعبة وظهيرة كلها نصب وإعياء . . ثم أيقظتنى صيحات قريبة مرتنة ، فاذا ابنتكم الأميرة الحبيبة الحسان فى ربرب من أترابها يتلاعبن كربّات الأولب على رمال الشاطىء — وجثوت تحت قدميها ، ومازلت بها أعانق شبابها الغض بدعوات ممسولات ، وأثير نخوة صباها الفينان حتى أمرت لى بطعام شهى وخمر معتقة ، وأشارت إلى منعطف فتوجهت إليه فغسلت ما على جسمى من خبث ، ثم منحتنى هذا الصدار وذاك الدثار . . .

تلك قصتى أسردها عن قلب محزون . . ما فيها أثارة من مين »

قال الملك : « لشد ما أخطأت بنيتى إذ لم تصحبك

إلى هنا فى جملة حشمها ما دمت قد رجوتها فى ذلك أول الامر »

وقال أوديسيوس يجيبه : « إنها لم تخطىء أيها الملك الكريم وما عليها من ملام . لقد كلمتنى فى مثل ذلك فأبيت لأنى خفت أن يسوءك ذلك منها ومنى ، ولأنى أعلم أن الناس فى كل مكان ظنانون قوالون »

فقال الملك : « كلا أيها السيد ، إن صدرى لا يحمل مثل ذلك القلب النزق ... إن الرصانة والأناة أفضل ميزات الخلق الكريم ... تالله يابنى إنى لأوثرك كولدى ، وبودى لو قبلت فصهرت إلىّ وتزوجت ابنتى ، وعشت معنا كواحد منا .. وإنى — إن رضيت — لاقطعنك الأقطاع الشاسعة ومانحك المنزل الرحب . هذا وليس فى فياشيا كلها من يجسر أن يقسرك على شىء تأباه نفسك . معاذ الله يا بنى ... إن هذا إلا عرض ... مجرد عرض منى لما أنسته فيك من سمو ورجاحة عقل ونبل ... فان لم يرقك أن تفعل ، فانى معدّ لك أسباب عودتك غدا ، وستنام ملء عينيك بينما يكون الفلك ينهب اليم ويطوى العباب ، منسربا فوق الموج بقوة الأذرع الفتية التى تعمل فى المجاذيف حتى تصل الى وطنك سالما غانما بل حتى تصل الى أبعد منه ، ولو الى ما وراء أوبيا أبعد الجزائر منا ، حيث يحمل بحارتنا ردمنتوس [1] ذا الشعر الذهبى لزيارة تتيوس [2] جبار الأرض.. إنهم يبحرون به الى هذه الجزيرة ويعودون فى يوم فى غير عناء أو اعياء ، وستعرف سبب فخارى بسفائنى وبحارتى الذين يذرعون البحار ويضربون أكبادها حين يبحرون بك »

وشاع البشر فى أسارير أوديسيوس ذى التجاريب فقال : « أيها الأب الخالد ! لله محامدك الغر ! أنجز يامولاى يسر ذكرك فى البلاد ، وألق أهلى وأنشق نسمة من وطنى »

* * *

وهكذا تشقق الحديث بينهما ...

ثم أمرت الملكة بعض وصيفات القصر فأعددن فراشا وثيرا فى الرُّواق ذى الأعمدة ، وهيأنه بوسائد من دمقس ، وبثثن فوقه الأرائك والحشايا ، وعلّقن الستائر والأسجاف ، ووضعن البرانس [1] واللحف ... وكانت كل منهن تحمل شعلة كبيرة تتوهج فى جوانب القصر .. حتى إذا فرغن من كل شىء ، دعون أوديسيوس فى أدب وظرف أن ينهض لينام ... وغفا بطل هيلاس ... وأسلم عينيه لأحلام سعيدة

ونهض الملك والملكة لينعما بطيب المنام

(يتبع) دريني خشبة

(١) ابن زيوس من زوجته أوروبا وقاضى العدالة فى الدار الآخرة « هيدز » « جربر »

(٢) أحد مردة طارطاروس ويغطى جسمه مساحة تسعة أفدنة (جربر)

(١) البرنس بمعناه المعروف عربى فصيح

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشا